التوحيد وأثره في اجتماع الكلمة

الهيئة الاستشارية

تكلم أناس كثيرون في التآلف والتراحم ونبذ الفرقة والابتعاد عن البغضاء والشحناء، ولا يزال الكلام بالمرء في هذه القضايا واستحسانها ونبذ ما يناقضها حتى يوقعه في شيءٍ من الشطط والبعد عن الحق؛ لأنه نظر إليها من حيث حسنها في نفسها، ولم ينظر في مدى مشروعية وسيلته إليها.

وانقسم الناس في نظرتهم للتآلف أقسامًا كثيرة، وخفضوا ورفعوا في شأنها؛ فمنهم: من جعل التآلف مقصدًا يعلو على جميع المقاصد، وضحى بالقيم والأخلاق والدِّين من أجله، وكان همه أن ينشأ مجتمعٌ يحترم الآراء والمعتقدات بغض النظر عن صحتها أو فسادها وبطلانها في ذاتها، وما تؤدي إليه من أفعال، ما لم تصل هذه الأفعال إلى الضرر الدنيوي. ولا يخفى ما في هذه النظرة من المادية والنزوح بالنفس البشرية عن الوحي والغيب إلى عالم المادة والواقع وإغفال ما سواهما.

وآخرون حاولوا الحفاظ على القيم لكن بقدر ما يسمح به مبدأ احترام الرأي، وجعلوا الشرع تابعًا للأهواء البشرية، فما رأى الناس أنه يمكن أن يتعايشوا معه استحسنوه من أمور المعتقد والأحكام، وما ليس كذلك ردوه وأبطلوه بحجة أنه يثير الخلاف.

وكان محصلة هذين الرأيين النزول ببعض القضايا عن مرتبتها في الشرع إلى مرتبة الاحتياط والمحاذرة في التعامل معها، فخلصوا إلى عدم أولوية العقيدة في حياة الناس، وذلك من أجل عدم التفرقة وإشاعة الخلاف، وهذه الشبهة بدرجةٍ من الشهرة تغني عن عزوها؛ لأنها تتردد من أطيافٍ مختلفة عقديًا ومنهجيًّا، لا

تجمع بينها إلا هذه الخصلة.

ولذلك وجب بيان أولوية العقيدة في حياة المسلم، وأنها لا تناقض الرحمة والتآلف؛ خلاف ما يصوِّره بعض الناس، وذلك بضوابط منها:

أولًا: نبذ الخلاف ليس مقصودًا لذاته؛ كما أن الاجتماع ليس مقصودًا لذاته؛ ولذا لم تمدح الشريعة كل اجتماع، ولم تذم كل خلافٍ؛ فالاجتماع على الباطل ليس محمودًا، والباطل هو ما خالف الشرع بفعل محرم وترك واجبٍ، وأشد ذلك ما تعلق بباب الاعتقاد؛ قال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «دخل في هذه الآية كل محدثٍ في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة»[(١)].

قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: «لا يحل لأحدٍ أن يقيم بأرضٍ يسبُّ فيها السلف»[(٢)].

فليس كل اجتماع يكون محمودًا شرعًا، بل العبرة بما يجتمع عليه المجتمعون، فإن كان خيرًا ندب إليه، وإن كان شرًّا نهي عنه.

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات أهل الإيمان، وأول ذلك الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك؛ قال الله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكل ما أتبع ذلك، وقوله: ﴿عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يريد عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك، وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف؛ فهو دعاء من الشرك إلى الإسلام، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن

(١) «بحر العلوم» (١/ ٣٤٩)، «الكشف والبيان» (٣/ ٤٠٣).

(٢) «القبس» (١١٥٤).

عبادة الأوثان والشياطين»[٣].

فلا يكون الإيمان والولاية إلا بتحقق هذا المعنى؛ وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهذه المعاني لا تأتي مع فساد المعتقد.

ثالثًا: العقيدة الصحيحة لا تفرِّق الناس، بل هي الأصل الجامع لهم، وهي الحبل الذي أمروا بالتمسك به، ولكن تفرقتهم تأتي من جهة تعمد مخالفتها وتنكب ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الإيمان والعمل؛ ولذا أمر الله بالتمسك بالدين، وجعل تركه تفرقًا، وليس العكس، قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣].

فالدين المأمور بإقامته؛ هو: «توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلمًا»[٤].

ويقابل التوحيد الشرك في العبادة، فهو التفرقة في الدين التي نهى الله عنها، فقال سبحانه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: ٣٢].

ومرد هذا الاختلاف والتنازع إلى اشتباه الحقِّ بالباطل وخفائه، وسبب ذلك عدم العلم الذي يميِّز بين الحق والباطل[٥].

رابعًا: الاتباع قبل الاجتماع، فلو افترضنا أن رسول الله ﷺ حي بين أظهرنا يوحى إليه ما كان لنا أن نختلف، وإذا اختلفنا؛ فإن النار حظ العاصي لأمر رسول الله ﷺ، فكذلك الأمر بعد وفاته، وعند اختلاف الناس؛ فإن الفيصل بينهم في قضايا المعتقد هو قول رسول الله ﷺ وفعله وما ترك عليه أصحابه؛ ولذا قال: «فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثةٍ

(٣) «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٨).
(٤) «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٠).
(٥) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ١٩٧).

بدعــةٌ، وكل بدعــةٍ ضلالــة»[٦].

فهــل بــدأ النبــي ﷺ النــاس بغيــر التوحيــد؟! وهــل دعاهــم إلى غـيره مــع علمــه بعــدم اســتقرار المعتقــد في قلوبهــم؟!

خامسًــا: جماعــة المسـلمين إذا أطلقــت؛ فالصحابــة علــم عليهــا، فــلا بــد مــن موافقتهــم في المعتقــد؛ لأنهــم كانــوا فيــه عـلى منهــج واحــدٍ، فلفــظ الإيـمان والإســلام والتقــوى والحــق والضــلال كلهــا حقائــق شرعيــة، وليســت عرفيــة، وقــد زكــى القــرآن هــذه المعــاني عنــد الصحابــة، ووصفهــم بهــا، فــلا يمكــن الخــروج عـما كانــوا عليــه أو مخالفتــه؛ لأن ذلــك مخالفــة للحــق ومفارقــة للجماعــة الأم وهــم الصحابــة، ولا يتأتــى هــذا المعنــى في حيــاة النــاس بصــورة ظاهــرةٍ إلا بتفســير هــذه المعــاني وإعطائهــا حقهــا مــن التفســير والــشرح، والمحافظــة عليهــا، وضرورة الالتــزام بهــا كــما كانــت عندهــم، وقــد نــزِّل في القــرآن عــلى النبــي ﷺ أولويــة المعتقــد -وخصوصًــا بــاب العبــادة- في دعــوة الرســل وجمــع النــاس عــلى ذلــك؛ قــال ســبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[الأنبيــاء: ٢٥].

وهــذا الحــد متفــق عليــه بــين جميــع الرســل في دعوتهــم، فكيــف لا تكــون لــه الأولويــة، قــال عليــه الصــلاة والســلام: «أنــا أولى النــاس بعيســى ابــن مريــم في الدنيــا والآخــرة، والأنبيــاء إخــوةٌ لعــلات؛ أمهاتهــم شــتى ودينهــم واحــد»[٧].

قــال المنــاوي: «أي: أصــل دينهــم واحــد؛ وهــو: التوحيــد، وفــروع شرائعهــم مختلفــة، شــبه مــا هــو المقصــود مــن بعثــة جملــة الأنبيــاء -وهــو إرشــاد الخلــق- بــالأب، وشــبه شرائعهــم المتفاوتــة في الصــورة بأمهــات»[٨].

سادسًــا: الفــرق الغاليــة التــي اســتحلت دمــاء المســلمين وفارقــت الجماعــة ليســت انعكاسًــا لقضيــة أولويــة العقيــدة، بــل هــي نتــاج مقــررات عقديَّــة فاســدة ومجتــزأة، فبعــض الفــرق

(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٤٤)، وصححه ابن حبان (٥)، والحاكم (٣٢٩)، وابن عبد البر في جامع البيان (٢/ ١١٦٤)، وابن تيمية في منهاج السنة (٤/ ١٦٤).

(٧) أخرجه البخاري (٣٢٥٩).

(٨) «فيض القدير» (٣/ ٤٧).

لا تدرس العقيدة بشموليتها، وإنما تدرس فقط نواقض الإسلام وتقرّرها في أبواب معينة مثل الحاكمية وغيرها، وهذا التقرير عادة ما يخطئون فيه من ناحيتين:

الأولى: أن التقرير في نفسه يكون مخالفًا لعقيدة السلف، ومتخيِّرًا فيها لبعض الألفاظ المتشابهة التي توافق في ظاهرها الشهوة السياسية لبعض التوجهات الخاصة لهذه المجموعات.

الثانية: الخطأ في التنزيل؛ فعادة ما ينزلونها في غير محلِّها، فيقومون بتطبيق بعض الأحكام التي لا يقوم بها إلا الخليفة أو نائبه من نحو اعتبار الأمان والذمة والعهد وتطبيق الحدود والحكم على الناس، فيفتاتون على الشرع وعلى الأمَّة، ويقومون بأفعال لا يخوِّلهم الشرع إياها لو كانوا أمراء، فضلًا عن كونهم مجموعاتٍ منبوذة لو جمعت من جميع أقطار الدنيا ما كانت تمثِّل نسبة معتبرة في الأمة، مع غياب خيار الأمة -علماء وصلحاء وموجهين- عنهم ومخالفتهم لهم.

وهم في حقيقتهم نتاج واقع مركب من الظلم والجهل والبعد عن الشرع وعما كان عليه السلف، وليسوا نتاج طرح عقديٍّ منضبط كما يصوِّره مناوئو منهج السلف الصالح.

فإذا تبين هذا؛ فإن الدعوة للعقيدة الصحيحة مقيدة بمعناها الوارد في الشرع، المصحوب بالحرص على الأمة والرحمة بها، ومراعاة الخلاف، واستحضار العذر لصاحبه، ومحاولة ردِّ الناس إلى الحقِّ وإلى الأصل، وليست تميُّزًا عن الأمة، ولا تفريقًا لها؛ لأن الأمة الحقيقية هي الأمة المعتصمة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، وليست هي الأمة المتخلِّية عن أعزِّ شيء عندها وهو عقيدتها؛ لتأتلف فيما بعد ذلك على أمور حياتية زائلة لا قيمة لها في الحياة، فكيف بالشرع؟!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«وإنما يعمل أهل الباطل وينشطون عند اختفاء العلم، وظهور الجهل، وخلو الميدان ممن يقول: قال الله، وقال الرسول؛ فعند ذلك يستأسدون ضد غيرهم، وينشطون في باطلهم؛ لعدم وجود من يخشونهم من أهل الحق والإيمان وأهل البصيرة».

«مجموع الفتاوى» (٤/٦٠).